

أمّ المؤمنين خديجة

محمد سليمان

سنة - ثلاثين سنة .
 وأما أمّها فهي فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن فهر بن لؤي بن غالب . فهي تجتمع مع زوجها خويلد في لؤي بن غالب... من كنانة من قريش .
 خديجة القرشيّة الأسدية تلتقي نسباً مع النسب الكريم لرسول الله ﷺ في جدّه الرابع «قصي»، فهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي... وهي بالتالي أقرب نسائه إليه ﷺ .
 كانت تدعى في الجاهلية بالظاهرة، وسيدة نساء قريش، وسيدة قريش .

في بيت من البيوت العريقة وذات السمعة الطيبة والمكانة العالية في الحجاز، ولدت سيدتنا خديجة لأبوين قرشيين: فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرّة ابن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر من كنانة... من قريش، فهو من بني أسد. وقدمات في حرب الفجار، التي قامت في الجاهلية في الأشهر الحرم بين قريش وقيس عيلان، ويومذاك كان عمر خديجة - إذا ما أخذنا برواية أن عمرها حين زواجها من الرسول ﷺ أربعون

وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظهن شرفاً، وأكثرهن مالاً وأحسنهن جمالاً... وفي لفظ كان يقال لها سيدة قريش؛ لأن الوسط في ذكر النسب من أوصاف المدح والتفضيل، يقال: فلان أوسط القبيلة أعرقها في نفسها...^(١)

عمرُ خديجة:
الاهتمام بعمرها أمر طبيعي جداً؛ لأنه جزء من دراسة حياتها المباركة بعد أن اقترنت برسول الله ﷺ، وصارت حياتها جزءاً من حياته الشخصية والدينية بكل أبعادها. ولكن هذا الاهتمام بدلاً من أن يولد لدينا القطع بعمرها عمق الاختلاف فيه تبعاً لاختلاف الروايات والأخبار وبالتالي الآراء عن ولادتها، وعن عمرها وحياتها حين اقترانها بالرسول الكريم ﷺ، وراحت - اعتماداً على تلك الروايات - أقوال قدماء المؤرخين بالذات وأقوال من جاراتهم من الكتاب المحدثين توسع ذلك الاختلاف وتثبتته ولم تستطع حسمه بما تقدمه من أدلة. وابتداء نشير إلى بعض روايات سنّها

ومصادرهما:
فعن ابن عباس: كانت خديجة يوم تزوجها رسول الله ﷺ ابنة ثمان وعشرين سنة^(٢).
وعن حكيم بن مزاحم (ابن أخيها): تزوج رسول الله ﷺ خديجة وهي ابنة أربعين سنة، ورسول الله ﷺ ابن خمس وعشرين سنة. ويقول مزاحم: وكانت أسنّ مني بسنتين، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة، وولدت أنا قبل الفيل بثلاث عشرة سنة^(٣) (فقد ولد ﷺ بعد وقعة الفيل بخمسين يوماً...)^(٤).
وذكر الواقدي: أنها كانت لما تزوجها رسول الله ﷺ بنت خمس وأربعين سنة.
وعن البيهقي والحاكم: ... وأن عمره ﷺ كان خمساً وعشرين وعمرها خمساً وثلاثين.
كما أن هناك من يقول: إنها ابنة ٢٥ سنة، أو ٣٠ سنة...
يقول صاحب كتاب تحاف الوري بأخبار أمّ القرى...
... خطب النبي ﷺ إلى خديجة نفسها، وكانت ابنة أربعين سنة. ويقال:

متعددة... وكلها تشير إلى الاختلاف في سنّها؟!
 وذهب ابن اسحاق، كما في مستدرك الحاكم، إلى أن خديجة كانت في الثامنة والعشرين من العمر^(٥).

في حين ذهب العقاد في كتابه فاطمة الزهراء والفاطميون إلى اعتماد رواية ٢٥، ٢٨ سنة، حيث يرى أن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النور ويبكر فيها الهرم، فلا تتصدى للزواج بعد الأربعين.

وهذا ردّ صريح على من أخذ برواية الأربعين، الذين أخذوا في اعتبارهم أن السيدة خديجة قد تزوجت قبل رسول الله ﷺ من عتيق بن عائذ ومن بعده من أبي هالة زُرارة، وأنجبت لهما أولاداً، ثم مكثت بعد وفاة زوجها الثاني مدة ليست قصيرة، راغبة في تنمية ثروتها وأموالها، التي ورثتها من أبيها الذي كان ثرياً ومن قبيلة ذات مال وفير، ومن زوجها، عازفة عن الزواج الثالث؛ لأن كل من تقدّم لزواجها - كما زعم - إنما كان تدفعه الرغبة في ثروتها، ولأنها لم تجد فيهم

ابنة خمس وأربعين ويقال: ... ثمان وأربعين سنة ويقال: ... ست وأربعين، وقيل: ... ثلاثين، ويقال: ... ثمان وعشرين ...

فالأقوال إذن في مسألة عمرها مختلفة، وقد ذهب جلال مظهر في كتابه: محمد رسول الله، سيرته وأثره في الحضارة إلى (أنها كانت ابنة ٢٥ سنة) دون أن يذكر سبباً مرجحاً لذلك.

في حين اعتمدت بنت الشاطئ في كتابها نساء النبي رواية الأربعين، التي اعتمدها الطبري والواقدي ورواها حكيم بن مزاحم. وهيكلي هو الآخر اعتمد في كتابه حياة محمد ما اعتمده الطبري والواقدي.

وقد ذكر كل من الدكتور عبد الصبور شاهين وإصلاح عبدالسلام في أمهات المؤمنين: وقد أجمعت كتب التاريخ والسيرة، إلا رواية واحدة في الطبقات على أن السيدة خديجة كانت في الأربعين من عمرها، عند زواجها... إن ما ذكره بعيد عن الدقة، فأين هو الإجماع، وهذه المصادر وكتب التاريخ بين أيدينا قد ذكرت روايات

على توفر عوامله، التي منها صحة المرأة واستعدادها وقابليتها وبيئتها، وما تعيشه المرأة من رفاهية في حياتها واستقرار وراحة... وهو ما توفر للسيدة خديجة. علماً بأن هناك من يقول: إن آخر ما أنجبته خديجة فاطمة الزهراء وهي في الخمسين إن لم تكن أقل من ذلك من عمرها المبارك، ومعنى هذا أنها لم تنجب بعد الخمسين سنة وكانت هذه الفترة ١٥ سنة.

فالمدائي قال: ولدت فاطمة قبل النبوة بخمس سنين.

وفي رواية جعفر بن سليمان: ولدت فاطمة سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ.

وعن أبي جعفر: ... أما أنت يا فاطمة فولدت وقريش تبني الكعبة والنبي ﷺ ابن خمس وثلاثين سنة.

فهذه الروايات تبين أن فاطمة - وهي آخر مولود لخديجة - ولدت وخديجة بعد لم تتجاوز الخمسين من عمرها. وعلى رواية الأربعين كانت البعثة وخديجة في الخامسة والخمسين من عمرها...

من الشرف والأمانة والصدق، هذه الصفات التي كانت تنسدها، حتى تستطيع أن تأمنه على أموالها وتجارها... حتى قدر لرسول الله ﷺ أن يضارب بتجارها، وقد قبلت به لمعرفتها بأنه الصادق الأمين، وهو الذي عُرف بهذا بينهم، وفعلاً سافر إلى الشام ببضاعتها وعاد ببضاعة أخرى وفيرة وأرباح عالية لم تعهدها من قبل، مع ما حدّثها عنه غلامها ميسرة، الذي كان برفقة محمد وخدمته، فزادت معرفتها به، وعظم تعلقها به، ورأت فيه ما كانت تتمنى، فتزوجته. وقد استعان أصحاب رواية الأربعين بذيل الرواية نفسها عن حكيم بن مزاحم على تأييد ما ذهبوا إليه، وذيلها يقول: إنها توفيت في شهر رمضان سنة عشر من النبوة وهي يومئذ ابنة خمس وستين سنة^(٦)...

وأخذ على هذا الرأي: أنها كيف أنجبت في هذه السن المتأخرة؟! وأجيب عن ذلك بأنه من المشاهد وجود نساء قد أنجن بعد الأربعين، بل بعد الخمسين أيضاً، وهذا الأمر يتوقف

وقد ترد بعض الملاحظات على مسألة التمسك برواية ٤٠ وأنها قد تزوجت مرتين...

١ - لماذا هذا الاصرار على التمسك برواية الأربعين وعدّها هي المشهورة، وهي رواية من عدّة روايات (٤٥ سنة، ٢٨ سنة، ٢٥ سنة، ٣٠ سنة...) أليس هذا ترجيحاً بلا مرجح؟

٢ - امرأة بهذا العمر (٤٠، ٤٥ سنة، وفي أجواء كأجواء الحجاز الحارة جداً، التي يسرع الكبر فيها إلى الإنسان، وقد تقدم لخطبتها - كما تقول الأخبار - أعظم قريش نسباً ومالاً ورفضتهم، بل وتمناها وتمالك عليها كلّ شريف وعظيم، فقد كان ممّن خطبها عقبة بن أبي معيط، والصلت بن أبي يهاب وكان لكل واحد منهما أربعائة عبد وأمة، وخطبها أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان^(٧)، فهل كلّ هذا يكون من أجل امرأة بهذه السن المتأخرة، ومن أجل امرأة عاشت ببنتين (بيت عتيق، وبيت «أبو هالة»)، وأنجبت واحداً على رواية، واثنين على رواية أخرى، وثلاثة على رواية ثالثة، وهم (هند

والحارث وبنت اسمها زينب)^(٨)، وترملت بعدهما وعاشت سنين أخرى؟! أو يصح هذا وهم قادرون بما عندهم من شرف ومال وجاه أن يتزوجوا بما يحلو لهم من النساء من بيوتات عربية أخرى ذات شرف وعفة ومال وجمال؟!!

ثم إن زوجها السابقين لم يكونا بدرجة عالية من المكانة، ومع هذا قبلت بهما وهي في شبابه... فكيف وقد تقدم بها العمر ترفض زعماء قريش وأشرافها؟! وإن قيل إنها قررت تنمية ثروتها، فإن هذا ادعاء سطرته أقلام الكتاب، ولا يصلح أن يكون مبرراً يفرض عليها ما دامت لم تصرح به، علماً بأن في قبال هذا الادعاء ادعاءً يقول: إنها إنما رفضتهم جميعاً؛ لعدم توفر الصفات التي تريدها فيمن تقدم لخطبتها، وهو ادعاء أقوى من ادعاء الكتاب؛ لأنه من أقرب الناس لها.

قال ابو القاسم الكوفي: إن الإجماع من الخاص والعام، من أهل الأنام ونقله الأخبار، على أنه لم يبق من

خديجة إليها، وبعد أن تزوجت بالرسول ﷺ ماتت هالة، فبقيت الطفلتان في حجر خديجة والرسول ﷺ... وكان العرب يزعمون أن الربيبه بنت، ونسبتا إليه ﷺ، مع أنهما ابنتا أبي هالة زوج أختها، وكذلك كان الحال بالنسبة لهند نفسه^(١١).

أريد من هذا كله أن أقول: إن ما يناسب صفات هذه السيدة، وما يلائم كل ما قيل بحقها، ورغبة الآخرين فيها، وما يبعدها عن مسألة كل ما يرد من إشكالات حول عمرها وقدرتها على الانجاب، وما دامت الروايات كلها قد تكون بمستوى واحد وليس لواحدة على الأخرى ترجيح، أرى أن الأخذ برواية ٢٥، أو ٢٨ كما ذهب إليه العقاد أولى، لأن هاتين الروايتين تناسبان واقع حياة هذه المرأة لا غير.

أما زواجها السابق لمرتين فهو أيضاً محل تأمل وتوقف، وقد وردت أدلة وأقوال على أنها باكر كما ذهب إلى ذلك كل من أحمد البلاذري، وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرضى في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: أن

أشراف قريش، ومن ساداتهم، وذوي النجدة منهم، إلا من خطب خديجة، ورام تزويجها، فامتنعت على جميعهم من ذلك، فلما تزوجها رسول الله ﷺ غضب عليها نساء قريش وهجرنها، وقلن لها: خطبك أشراف قريش، وأمرؤهم فلم تتزوجي أحداً منهم، وتزوجت محمداً يتيماً أبي طالب فقيراً، لا مال له؟! فكيف يجوز في نظر أهل الفهم أن تكون خديجة، يتزوجها أعرابي من تميم، وتمتنع من سادات قريش، وأشرافها على ما وصفناه؟! ألا يعلم ذوو التمييز والنظر أنه من أبين المحال، وأفظع المقال؟!^(٩)

٣ - وفي الاستغاثة ذكر بعض أنه كانت لخديجة أخت اسمها هالة^(١٠) تزوجها رجل مخزومي، فولدت له بنتاً اسمها هالة، ثم خلف عليها رجل تميمي يقال له أبو هند فأولدها ولداً اسمه هند... وكان لهذا التميمي امرأة أخرى قد ولدت له زينب ورقية، فماتت ومات التميمي، فلحق ولده هند بقومه وبقيت هالة أخت خديجة والطفلتان اللتان من التميمي وزوجته الأخرى؛ فضمتهن

مشاعرها، وامتلك كلَّ عواطفها، وتحركت في قلبها أسرارها، وكأنها تريد لهذا الحديث ألا يتوقف أو ينتهي، ثم راحت تحدق في مستقبل فتى بني هاشم الصادق الأمين، الذي غدا صدقه يملأ الآفاق، وأمانته يلهج بها كلُّ لسان، ماذا يجبئ المستقبل لهذا اليتيم الهاشمي، وما هو ذاك الشأن العظيم الذي ينتظره؟!

لقد تمثلت أمام عينيها شخصيته بكلِّ ما فيها من نبيل صفاته ورقة شمائله، وعظيم وكرم أخلاقه، وجمال روحه وشرفه وفضله على الجميع.

لاحت من ميسرة نظرة إلى سيدته، فردت طرفها وعلتها العفة وهي أنبل نساء عصرها حياءً وأعظمن خلقاً... فانقلبت غبطتها تلك وفرحتها إلى حُبِّ لم تحس به من قبل، والى ودِّ ما لأمس مثله أحاسيسها أبداً، وإلى إكبار وتكريم ولجا قلبها ملاً كلَّ منها عليها حياتها... وهي التي تمردت على واقع نساء قومها، وامتنعت أمام أعظم قريش شرفاً ونسباً وثراءً ومكانة... فالتفتت بعد حين إلى أختها على قول

النبي تزوج بها وكانت عذراء، هذا ما نقله ابن شهر آشوب في المناقب في ترتيب أزواجه عليه السلام، حيث يقول: تزوج بمكة أولاً خديجة بنت خويلد؛ قالوا: وكانت عند عتيق بن عايد المخزومي ومن ثم عند أبي هالة زرارة بن نباش الأسيدي.

وروى أحمد البلاذري، وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرضى في الشافعي، وأبو جعفر في التلخيص: أن النبي تزوج بها وكانت عذراء، يؤكد ذلك ما ذكر في كتابي الأنوار والبدع: أن رقية وزينب كانتا ابنتي هالة أخذت خديجة (١٢).

الزواج المبارك:

استجمعت أحاسيسها وراحت تستمع فرحةً مسرورةً لحديث غلامها ميسرة، الذي صحب النبي عليه السلام وهو يضارب في تجارة لخديجة في الشام، وراح يحدثها عن سيرة محمد معه وعن أخلاقه وطباعه وصفاته الجميلة، وعمّا كان يراه من كراماته التي لم ير ميسرة مثيلاً لها من قبل على كثرة سفراته مع آخرين، فأعجبت به، وقد أسر كلُّ

لمكانتها وصفاتها لتكون امرأة خاتم
رسله، وسيد الأولين والآخرين محمد
ابن عبدالله.

لم يتأخر محمد في إبلاغ عمّه (أبو
طالب) وعشيرته بذلك، كما لم تتأخر
خديجة فقد أبلغت عمّها عمرو بن أسد،
الذي حضر، ودخل رسول الله ﷺ عليه
في عمومته، ومعه بنو هاشم وسائر
رؤساء مُضَرَ، فخطب أبو طالب فقال:
الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم،
وزرع إسماعيل، وضئضئ معدّ، وعُنصر
مُضَرَ، وجعلنا حَصَنَةَ بيته، وسُوَاس
حَرَمِهِ، وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً
آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إنَّ
ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن
به رجل من قريش إلا رجح به شرفاً
ونُبلاً وفضلاً وعقلاً، فإن كان في المال
فلا، فإن المال ظلّ زائل، وأمر حائل،
وعارية مسترجعة. ومحمد من قد
عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة،
وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله
من مالي هذا، وهو مع هذا - والله - له
نبأ عظيم، وخطر جليل أو «له والله
خطب عظيم ونبأ شائع». فتزوجها

وإلى صديقتها نفيسة بنت منبه على قول
آخر؛ لتسرّها بأن ما قاله ميسرة عن
محمد قد نفذ إلى روحها، وأنها وجدت
فيه ما كانت تتمناه ولم تجده فيمن تقدم
لخطبتها، فما كان من نفيسة - وقد
سرّت بما سمعته - إلا أن بادرت
إليه - على رواية - فقالت له: ما يمنعك
أن تتزوج؟
قال: ما بيدي ما أتزوج به.

قالت: فإن كفيت ذلك، ودُعيت إلى
الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا
تجيب؟

قال: فمن هي؟!

قالت: خديجة.

قال: كيف لي بذلك؟!

فقالت نفيسة، وقد علت ملامح
وجهها الفرحة: عليّ ذلك، وسارعت
لتبلغ خديجة بما سمعته من محمد.

وفي رواية: ... وكانت لبيبةً
حازمةً، فبعثت إليه تقول: يا ابن عمّ،
إني قد رغبتُ فيك لقرابتك وأمانتك
وحسن خلقك وصدق حديثك^(١٣).

لقد خصّها الله بكرامةٍ أذخرها لها،
وكانت له من الشاكرين، واختارها

لأنه لا يوافق من تزويجها من فقير
يتيم...

ففي رواية أحمد في مسنده:

حدّثنا أبو كامل، ثنا حمّاد، عن عمّار
ابن أبي عمار، عن ابن عبّاس - فيما
يحسب حمّاد - أن رسول الله ﷺ ذكر
خديجة، وكان أبوها يرغب عن أن
يزوّجها، فصنعت هي طعاماً وشراباً،
فدعت أباهاً وزُمراً من قريش فطعموا
وشربوا ثم تملّوا، فقالت لأبيها: إن
محمدًا يخطبني فزوّجني إياه، فزوّجها
إياه، فخلّقتَه (طبيته، وفي المسند
«فجملته») وألبسته حلّة كعادتهم، فلما
صحا نظر، فإذا هو مخلّق فقال: ما
شأنني؟ فقالت: زوّجتني محمدًا، فقال:
وأنا أزوّج يتيم أبي طالب! لا لعمرى،
فقالت: أما تستحي؟ تريد أن تسفّه
نفسك معي عند قريش بأنك كنت
سكران، فلم تزل به حتى رضي.

وقد روى طرفاً منه الأعمش، عن
أبي خالد الوالي، عن جابر بن سُمرة أو
غيره.

كما ذكر مختصر تاريخ دمشق رواية
نسبت إلى عمار بن ياسر تشبه هذه

وأصدقها عشرين بكرة، وقيل اثنتي
عشرة (اثنتين وعشرين) أوقيه ذهباً
ونشا (نصف أوقية)، والأوقية أربعون
درهماً، والنش عشرون درهماً؛ فذلك
خمسمائة درهم.

وفي رواية - فقال لأعمامه... فجاء
معه حمزة عمّه حتى دخل على خويلد
[خويلد بن أسد، وقيل: بل عمرو بن
خويلد بن أسد، وقيل بل عمرو بن
أمية عمّها، وكان شيخاً كبيراً وهو
الصحيح، على ما في نهاية الأرب
٩٨/١٦، وعند ابن سعد في الطبقات
١٣٢/١ وعن جمهرة النسب للكليبي
ص ٧٤ وهو عمرو بن أسد ابن عبد
العزّي، وهو يومئذ شيخ كبير لم يبق
لأسد لصلبه يومئذ غيره، ولم يلد عمرو
ابن أسد شيئاً] (١٤).

إذن فقد اشتهر أن عمّها عمرو بن
أسد، هو الذي زوّجها، وإن قيل: إن
الذي زوجها أخوها عمرو بن خويلد؛
لأن أباه مات قبل حرب الفجار،
وهذا كلّه يكذب المزاعم، التي رويت
من أن أباهاً زوّجها بعد أن سقته
خمرًا... لتحصل بذلك على موافقته؛

الرواية .

وهذا ما نفاه الواقدي بعد نقله بقوله :

وهذا غلط ، والثبت عندنا المحفوظ من حديث محمد بن عبدالله بن مسلم ، عن أبيه ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، ومن حديث ابن أبي الزناد ، عن هشام ابن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة . ومن حديث ابن أبي حبيبة ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن عمَّها عمرو بن أسد زوّجها رسول الله ﷺ ، وأن أباه مات قبل الفجار (١٥) .

وقد بلغت تلك الرواية من الضعف والسخف درجة كبيرة ، فهي إضافة إلى منافاتها لأخلاق هذه السيدة المباركة حتى قبل زواجها برسول الله ﷺ ، فقد شهد لها - في الجاهلية - بسمو الخلق والنجابة والشرف وبرجاحة عقلها وقوة شخصيتها ، مع ما لها من المكانة الكبيرة عند أهلها وعشيرتها ، ممَّا جعلها موضع فخر واعتزاز وممَّا يؤهلها لاقتناع أبيها - عليّ فرض حياته - بهذا الزواج . يقول صاحب السيرة الحلبية

عنها : امرأة حازمة أي ضابطة جلدة أي قوية شريفة أي مع ما أراد الله تعالى لها من الكرامة ومن الخير... فامرأة تحمل هذه الصفات لا أظنها بحاجة إلى أن تستعين بأسلوب يتناقى مع كلّ ما منّ الله تعالى عليها من صفات كريمة ، وقد وصفت خديجة نفسها هذا الأسلوب - حسب الرواية - بقولها إلى أبيها : تريد أن تسفه نفسك معي عند قريش بأنك كنت سكران . فهو إذن أمر معيب عندهم فكيف ترتكبه؟! وإضافة إلى هذا فإن الرواية تتناقى مع الرواية الأخرى التي نالت إجماع أكثر المؤرخين من أن أباهم توفي من قبل وأن عمَّها هو الذي زوجها ، وعلى رواية ضعيفة أن أخاها زوجها .

وتمّ هذا الزواج المبارك ، بعد رجوع النبي ﷺ من سفره إلى الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً ، وقبل بعثته نبياً بخمس عشرة سنة ، وبعد أن أكمل ﷺ خمساً وعشرين سنة وشهراً وعشرة أيام من عمره المبارك (١٦) ، وأخذت هذه السيدة مكانها الذي اختارته السماء لها لتكون بجانبه ﷺ وهو يستعد لتحمل

نساء قريش وكان بينهن نساء المبغضين فلما اجتمعن وأكلن قالت لهن: معاشر النساء بلغني أن بعولتكن عابوا عليّ فيما فعلته من أي تزوجت محمداً، وأنا أسألكم هل فيكم مثله، أو في بطن مكة شكله من جماله وكماله وفضله وأخلاقه الرضيّة؟! وأنا قد أخذته لأجل ما قد رأيتُ منه، وسمعت منه أشياء ما أحد رآها، فلا يتكلم أحد فيما لا يعنيه، فكفّ كل منهن ومنهم عن الكلام (١٧).

وقد تابع الزوجان حياتهما المباركة هذه، وجهادهما الدؤوب، وقدر لخديجة أن تكون في قلب الأحداث الجسام المملوءة بالآلام والشدائد المضنية، ووهبت كلّ ما تملكه من ثروة وهو كثير ووضعته بين يدي رسول الله ﷺ ليضمّه إلى سيف علي ﷺ.

أنجبت له ﷺ كلّ أولاده إلا إبراهيم فهو من مارية القبطية. وهم القاسم وبه كان ﷺ يكنى والطيب والظاهر - عليّ قول - وقد ماتوا صغاراً رضعاً قبل بعثته المباركة، ورقية وزينب - عليّ قول - وأمّ كلثوم وفاطمة الزهراء التي تزوّجها الإمام علي ﷺ.

مهام أعظم رسالة سماوية إلى الناس كافة، فكانت للرسول ﷺ نعم الزوجة ونعم السكن ونعم النصير، وكان لها أحسن حظ طالما انتظرتة وتمنته، ولم ينجو هذا الاقتران من حسدٍ وبغضٍ وغضب، فقد أحدث هزة بين الرجال، الذين سبق لهم أن توافدوا على عتبة بابها، وهم يحملون معهم كلّ المغريات ليخطبوا يدها، إلا أنهم عادوا من حيث أتوا خائبين بعد أن رفضتهم، ولم تعباً بما حملوه معهم من مال، ولم يجد شرفهم وزعاماتهم أي أثر في نفسها. فلاذ بعضهم بالسكوت، والبغض والحسد يأكلان قلبه، في حين لم يتالك بعض آخر أحاسيسه ولسانه فقال: ما هذا إلا سحر، مسكينة خديجة، فقد سحرها اليتيم فشغفت به.

كما غضب عليها نساء قريش وهجرنها، وقلن لها: خطبك أشراف قريش، وأمرأؤهم، فلم تزوجي أحداً منهم، وتزوجت محمداً يتيماً أبي طالب، فقيراً لا مال له؟!!

فما كان من خديجة - بعدما سمعت بذلك كلّ - إلا أن صنعت طعاماً ودعت

ولم يتزوج رسول الله ﷺ غيرها طيلة حياتها المباركة معه، التي دامت قرابة خمس وعشرين سنة.

إسلامها:

من بركات الله تعالى الخاصة بهذه المرأة أن مَنْ عليها بأن اختارها لتكون أول نساء العالمين إسلاماً وأسبغهن تصديقاً برسول الله ودعوته، وأخلص نسائه ﷺ جهاداً، وأعظمن وفاءً وطاعة له، وأصبرهن تحملاً لما لاقاه رسول الله من ضروب الأذى والتضييق، وأكثرهن بذلاً وعطاءً في سبيل الله ورسوله، فعن عبدالله بن مسعود: إن أول شيء علمت من أمر رسول الله ﷺ قدمته مكة مع عمومة لي أو ناسٍ من قومي نبتاع منها متاعاً، فكان في بغيتنا شراء عطر، فأرشدنا إلى العباس بن عبدالمطلب، فانتبهنا إليه وهو جالس إلى زمزم، فجلسنا إليه، فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا أبيض،... كأنه القمر ليلة البدر، يمشي على يمينه غلام، حسن الوجه... تقفوهام امرأة، قد سترت محاسنها، حتى قصد نحو الحجر فاستلمه ثم

استلمه الغلام، واستلمته المرأة، ثم طاف بالبيت سبعاً والغلام والمرأة يطوفان معه، ثم استقبل الركن، فرفع يديه وكبر، وقامت المرأة خلفها، فرفعت يديها وكبرت، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع رأسه من الركوع، فقنت ملياً، ثم سجد وسجد الغلام معه والمرأة، يتبعونه، يصنعون مثلاً يصنع، فرأينا شيئاً أنكرناه، لم نكن نعرفه بمكة، فأقبلنا على العباس فقلنا: يا أبا الفضل، إن هذا الدين حدث فيكم، أو أمر لم نكن نعرفه فيكم. قال: أجل، والله، ما تعرفون هذا؟ قال: قلنا: لا، والله ما نعرفه، قال: هذا ابن أخي محمد بن عبدالله، والغلام علي بن أبي طالب، والمرأة خديجة بنت خويلد امرأته أما، والله، ما على وجه الأرض أحد نعلمه يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة.

لقد آمنت برسول الله، ولم يسبقها إلى ذلك إلا الإمام علي عليه السلام كيف لا يكون كذلك، وقد قرأت - بما ألهمها الله تعالى، وبما منحها من قدرة وحكمة وبصيرة ونظرة ثاقبة لمستقبل الصادق الأمين - مستقبله وأنه ذو شأن كبير

ومقام كريم ومنزلة محمودة؟!

لقد واكبت مسيرته المباركة وهو في غار حراء، بخدمتها الصادقة وكلماتها الطيبة، التي تدل على مدى اخلاصها ونباهتها وصفائها: «وهيات خديجة لزوجها ما يناسبه من حياة، فلما لجأ للتحنث في غار حراء، كانت تعدُّ له ما يحتاجه من طعام وشراب خلال الفترة، التي اعتكف فيها بالغار، فلما جاءه الوحي كانت أول من صدقه، وعانت معه صراع قريش ضده، وكانت البلسم الشافي لجراحه من هؤلاء المعتدين، ودخلت معه الشعب عندما قرر سادة قريش أن يقاطعوا المسلمين...» (١٨).

كانت تسمعه كلمات رقيقة هادئة كلما دخل بيتها عائداً من غار حراء، كلمات ملؤها الحنان والحب. تدعوه أن يطمئن، وتدعوه أحياناً أن يهدأ وينام، فكان يقول لها: مضى عهد النوم يا خديجة. لقد كانت كلماتها تلاحقه وهو في بيته، وهو خارج منه، وهو في الغار، وهو يدعو عشيرته للإيمان، وهو في دار الارقم يدعو الناس سراً، وهو في كل مكان في مكة يقارع قريشاً وشركها

جهراً، وهو يرى أعداءه والمتربصين به، والمبغضين له، فكانت تخفف عنه كل معاناته وكل ما يلقاه من أذى وتكذيب وعنت من قومه.

وكان ﷺ يصرّح ويفضي لها بكل شيء يقول ابن هشام في سيرته: وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، ... فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردِّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدقه وتهوّن عليه أمر الله، رحمها الله تعالى (١٩).

ومن كلماتها له ﷺ أيضاً: أبشر، فوالله، لا يخزيك الله أبداً، والله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر. **في شعب أبي طالب:**

ما انفكت قريش تصعد عداها لرسول الله ﷺ ودعوته الجديدة، ولم يتوقف عملها في تجذير ذلك العدا في نفوس أبنائها قولاً وعملاً. وكلما ازداد

بسبب ما نالهم من أذى وعذاب، فخرقوا هذه الوثيقة، وعادوا إلى الاتصال بهم^(٢٠) وهناك رواية: أن الأرضة أتت على كل شيء في الصحيفة، ولم تدع إلا اسم الله جلّ وعلا وقد أوصى الله لمحمد بذلك، فنقل ذلك إلى عمّه أبي طالب، فتحدث أبو طالب جماعة المشركين، وأحضروا الصحيفة فظهر صدق محمد.

هذه خلاصة المقاطعة، التي كانت خديجة ضحية من ضحاياها، فقد أصابها الضرر أيما إصابة، وعانت معاناة عظيمة من آثار هذه المحاصرة الظالمة، ولكنها لاذت بالصبر، ووقفت إلى جانب رسول الله ﷺ موقفاً، يندر أن تقف مثله امرأة، وكان لشخصيتها ومكانتها وهيبتها في النفوس الأثر الكبير، إلى درجة أنها صارت من أسباب قيام خلافٍ ونزاعٍ أدى إلى انهيار موقف قريش، وترك العمل بالصحيفة وفشل المقاطعة.

ففي السيرة النبوية^(٢١): أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد، ومعه غلام يحمل قمحاً إلى خديجة بنت

رسول الله ﷺ وصحبه التزاماً بموقفهم وثباتاً على مبادئهم ازداد عداء قريش لهم وأذاها. وقد رأت أن أهله وعشيرته قد وفروا له الرعاية والحماية، فعزمت على شنّ حملتها على هذه الاسرة، وارتأت أن تتخذ وسيلة غير الحرب في أول أمرها فلعلها تصل إلى أهدافها دون قتال وما يجزّه هذا القتال من ويلات وانقسامات بين قبائلها. فاجتمع زعمائها وكتبوا الصحيفة، التي قرروا فيها:

مقاطعة بني هاشم على المستويات الاجتماعية والاقتصادية فلا يتزوجون منهم، ولا يزوجونهم، ولا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يكلمونهم، ولا يزورون مرضاهم، ولا يشيعون موتاهم، وأكروههم أن يلزموا الشعب وهو طريق بين جبلين.

أما نتائج هذه المقاطعة - التي استمرت حوالي ثلاث سنوات - فقد كانت قاسية جداً على بني هاشم، ومستمهم بسببها الضرر بل الجوع والحرم... ولم تنقض إلا بعد أن أشفق بعض القرشيين على بني هاشم

فقال: ما زلت تذكر بحسرة وألم عجزاً من عجائز قريش همراء الشدقين، هلكت من عدة سنين، وقد أبدلك الله خيراً منها!

فما كان من رسول الله ﷺ بعد أن تغير وجهه الكريم، إلا وزجرها غاضباً، وقال: «والله ما أبدلني الله خيراً منها» ولم يكتف ﷺ بهذا بل راح يذكر مناقبها - التي ما فتئ يعيشها ﷺ في حياته المباركة -: «آمنت بي حين كفر الناس، وصدقني إذ كذبتني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء...»

فقال عائشة في نفسها: والله لا أذكرها بعدها أبداً (٢٣).

وقبل ذلك لم تتوقف غير أم المؤمنين عائشة من أم المؤمنين خديجة، التي احتلت تلك المكانة العظيمة من قلب رسول الله ﷺ وظهر ذلك كله في مواقف عملية للرسول الكريم، حتى بعد وفاتها سلام الله عليها.

رأته عائشة يوماً وقد ذبح شاة يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة

خويلد زوجة الرسول وعمّة حكيم، فتعلق به أبو جهل، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله، لا تبرح أنت وطعامك حتى أضحك بمكة، فجاءه أبو البختري، وقال له: مالك وله؟ إنه طعام كان لعمته رغبت إليه فيه، فكيف تمنعه؟ فأبى أبو جهل، وقام نزاع كان من أسباب إغفال الصحيفة ونهاية المقاطعة.

كما كان لهشام بن عمرو بن الحارث العاملي الذي كان من أقرباء خديجة دور آخر في بذر الخلاف بين زعماء المقاطعة، فقد كان أكثر الناس إقداماً على مساعدة المحصورين المقاطعين، فكان يدخل أحمال الطعام إلى بني هاشم في الشعب... وأرادت قريش معاقبته.

فانبرى أبو سفيان وقال: دعوه، رجل وصل رحمه، أما والله إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن (٢٢).

مكانتها في قلب الرسول ﷺ

لم تتحمل أم المؤمنين عائشة وهي ترى رسول الله ﷺ يذكر خديجة،

ويطوف بالكعبة، ويحطم رموز الكفر والشرك، وهو بين لحظة وأخرى يرمق دارها حيث نبع الحب وحيث السكينة والمودة والحنان والتضحية.

وفيما قالته أم المؤمنين عائشة، كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكذب يسأم من ثناء عليها واستغفار. فذكرها ذات يوم فاحتملني الغيرة، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن، قالت: فرأيت رسول الله ﷺ غضب غضباً أسقطت في جلدي، وقلت في نفسي: اللهم إنك إن أذهبت غضب رسول الله عني، لم أعد أذكرها بسوء ما بقيت. فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت، قال: كيف قلت؟ والله، لقد آمنت بي إذا كفر بي الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، وصدقني إذ كذبنى الناس، ورزقت مني الولد إذ حرمتُموه مني.

قالت: فعدا وراح عليّ بها شهراً. أما ما ورد فيها عن رسول الله ﷺ: - فعن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليها: أن رسول الله ﷺ قال: أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه

منها، وهنا أيضاً، لم تتوقف عائشة عن أن تسمعه شيئاً، فقال: «إني لأحبّ حبيبها» (٢٤).

وظلت الغيرة لا تنفك عن قلبها من سيدتنا خديجة، لا لشيء - فالأمر كله بعد موتها - إلا لأنها سبقتها إلى نفس رسول الله ﷺ وإلى قلبه فاحتلته بما امتلكته من خلق عالٍ وشرف رفيع وإيمان صادق وجهاد خالص وذكر طيب، وبما قدمته من حياتها التي استرخصتها وثورتها وأموالها، كل ذلك وضعت بين يديه المباركتين؛ لنيل مرضاة الله ولتعيينه ﷺ وهو يحمل أعظم رسالة وأخطر مسؤولية تبليغية تغييرية عرضتها السماء وعرفتها الإنسانية.

وحينما نصره الله تعالى وفتحت أبواب مكة له - وكان وقتها قد مرّ على وفاتها أكثر من عشر سنوات، وكانت كل تلك السنين مليئة بالأحداث والشؤون المريرة، ولكنها مع كل ذلك لم تشغله عن ذكره لخديجة - أقام في قبة ضربت له هناك إلى جوار قبرها - حيث روحها التي تحفّق حوله فترجحه وتؤنسه وترافقه وهو يشرف على فتح مكة،

ولا نصب.

قال ابن هشام: القصب ههنا: اللؤلؤ المجوّف (٢٥).

- وعن عائشة، قالت: ما غرّت من أحد ما غرّت عليّ خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني رسول الله ﷺ بثلاث سنين، ولقد أمر أن يبشرها ببيت من قصب في الجنة (٢٦).

- وقال ابن هشام: وحدثني من أتق به، أن جبريل ﷺ أتى رسول الله ﷺ، فقال: أقرئ خديجة السلام من ربّها، فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة، هذا جبريل يُقرئك السلام من ربك، فقالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام، وعليّ جبريل السلام.

عام الحزن:

شاءت السماء أن تمتحن هذا القلب الكبير، وقد امتحنته مرات ومرات، ولكن هذه المرّة في زوجته التي أبت إلا أن تعيش كبيرة وتموت كبيرة، والتي كانت له وزير صدق على الإسلام (٢٧)، وكانت شريكته في حياته كلّها، في دعوته، وفي تبليغه لها، وفي جهاده وتضحياته.

لقد رحلت عنه في السنة العاشرة من البعثة النبوية، ودفنت في مقبرة الحجون بمكّة بعد أن رحل قبلها - بشهور عليّ قول وبأيام عليّ قول آخر - عمّه أبو طالب الذي كان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً عليّ قومه (٢٨).

لقد رحلت هذه المرأة العظيمة، لتنتهي برحيلها ورحيل أبي طالب العم المدافع والمحامي القوي أولى مراحل رسالة السماء، التي شكلت الفترة المكيّة الأولى بكلّ آلامها وأحداثها، كما كانت الفترة التأسيسية لهذه الرسالة المباركة، وكان لوجوديهما المباركين الأثر العظيم في تشكيل تلك المرحلة التي دامت قرابة عشر سنوات وفي بقائها واستمرارها وثباتها.

لقد رحلت هذه السيدة المباركة، بعد أن وصل نداء الإسلام الحبشة، وتجاوز صدها بقاع الحجاز، وبعد أن حملته قلوب صادقة ونفوس مضحية، وأيادٍ قوية...

رحلت هذه السيدة الجليلة، وغابت عن دنياه، ولكنها لم ترحل عن قلبه

النابض بمواقفها الصادقة . رحلت هذه المرأة المباركة ولكنها ظلت ماثلة دائماً أمامه، ولم ينس ذكراها أو يتأس عنها، أو يدخل قلبه غيرها، أو يحتل مكانها منه، بل ولم تستطع أيّ واحدة من نساءه - مهما بذلت من جهدٍ - أن تبعد طيفها عنه ﷺ، وهو الذي ما فتى يذكرها، وكان ذكره لها يثير غيرة بعض نساءه، وكانت أشدهن غيرة أمّ المؤمنين عائشة، فبذلت ما تستطيعه من أجل أن تنسيه ذلك الطيف الجميل وتلك الذكرى العطرة، أو أن تخدم أو على الأقل تحقّف ذلك من قلبه فما استطاعت، مع أنها كانت في مطلع صباها ونضارة شبابها..

فسلامٌ على خديجة في الخالدين

الهوامش :

- (١) انظر السيرة الحلبية ١/١٣٧، باب تزوجه ﷺ خديجة بنت خويلد (رض).
- (٢) مختصر تاريخ دمشق ٢/٢٧٥.
- (٣) مختصر تاريخ دمشق ٢/٢٧٥.
- (٤) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٠٠، وأنساب الأشراف للبلاذري ص ٩٢.
- (٥) مستدرک الحاكم ٣/١٨٢، وقد كان كلام ابن اسحاق بلا إسناد.
- (٦) مختصر تاريخ دمشق ٢/٢٧١.
- (٧) انظر البحار ١٦/٢٢٢.
- (٨) جوامع السيرة النبوية، ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٥٦٤ هـ دار الكتب العلمية - بيروت.
- (٩) لها ذكر في كتب الأنساب، فراجع على سبيل المثال: نسب قريش لمصعب الزبيري ص ١٥٧-١٥٨.
- (١٠) الاستغاثة ١/٧٠.
- (١١) راجع الصحيح في سيرة النبي ﷺ، والاستغاثة ١/٦٨ - ٦٩ ورسالة مطبوعة طبعة حجرية في آخر مكارم الأخلاق ص ٦.

- (١٢) المناقب لابن شهر آشوب المازندراني المتوفى سنة ٥٨٨، ١/١٥٩.
- (١٣) السيرة الحلبية ١/١٣٧.
- (١٤) السيرة الحلبية ١/١٣٨.
- (١٥) انظر تاريخ الطبري ١/٥٢٢.
- (١٦) اتحاف الوري بأخبار أم القرى - السنة ٢٦.
- (١٧) البحار للمجلسي ١٩/٧١.
- (١٨) سير أعلام النبلاء ١/٨١.
- (١٩) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٤٠.
- (٢٠) السيرة النبوية لابن هشام ١/١١٠، ٢٣١، ابن القيم ٢/٤٦.
- (٢١) لابن هشام ٢/٥.
- (٢٢) تاريخ قريش ص ٣١٦ للدكتور حسين مؤنس.
- (٢٣) الاستيعاب ٤/١٨٢٤.
- (٢٤) الاستيعاب ٤/١٨٢٤.
- (٢٥) الروض الأنف، وانظر سيرة ابن هشام ١/٢٤١.
- (٢٦) الروض الأنف، وانظر سيرة ابن هشام ١/٢٤١.
- (٢٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤١٦.
- (٢٨) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤١٦.